صفحة منسية من تاريخ تونس (١٥٥٠)

للاب لويس شرل اليسوعي

تقتطف هذه النبذة التاريخية من كتاب طبع في العام الماضي في باريس كتبهُ احد المرسلين اليسوعيين في الجزائر الاب لويس شرل الذي توفي سنة ١٩١١ قبل نجاز تأليفهِ هذا فنشرهُ خديثًا الاب روزيت واهداهُ الى المشرق وهذا عنوانهُ

R. P. Louis Charles : Les Jésuites dans les Etats Barbaresques, Algérie et Maroc. Ouvrage posthume publié par le R. P. A. Rosette, *Paris, P. Lethielleux*, 1920, *in*-16, *VI*-136

والنبذة المذكورة تفيدنا عن حادث قلَّما اتَّسع في ذكره المؤرخون فاستخرجهُ الاب شرل من سجلَّات الرهبانيَّة اليسوعيَّة وبعض التواريخ الاسبانية

شرقيَّ سوسةَ احدى حواضر بلاد تونس على ساحل البحر المتوسط بازاء جزيرة صقلية مدينةٌ شهيرة تُدعى المهديَّة استحدثها سنة ٩١٦م المهديّ عبيد الله اوَّل الخلفاء الفاطميين قريباً من مدينة قديمة كانت تسمَّى افريقة (Africa) وجعلها كرسيَّ مملكتهِ. قال ابو الفداء في تقويم البلدان (ص ١٤٥) : « انَّها على طرف داخل في البحر كهيئة كفٍّ متَّصل بزند والبحر محيط بها غير مدخلها وهو مكان ضيِّق مثل سَبْتة وحصَّنها بسور شاهق في الهواء بالحجر الابيض بأبرجة عظام وابتنى بها القصور الحسنة الشارعة على البحر والظاهرة منهُ وابتنى الناس بالمهديَّة اجلّ الابنية وصارت من اجلّ الامصار »

فهذه المدينة الحريزة كانت في القسم الاوَّل من القرن السادس عشر تحت حكم الدولة الحفصيَّة التي كان كرسيّها في حاضرة تونس الَّا ان سلاطين بني عثمان حاولوا بسط سيطرتهم على سواحل افريقية من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس ومرَّاكش وساعدهم على ذلك بعض مشاهير القرصان اخصُّهم خير الدين بربروسة واخوهُ عروج ثم دراغوث وكانوا يعيثون فسادًا في تلك الجهات تارةً في سواحل المغرب وحيناً في شواطئ صقلية وايطالية فينهبون ويسلبون ويحرقون ويستبيحون الاهلين اسرًا وقتلًا

وكانت صقلية وقتئذٍ في حوزة الامبراطور شرلكان وله في الغرب وتونس عدة مستعمرات فرأى في غارات هؤلاء القرصان إجحافاً باملاكه ولاسيما بعد موت خير الدين اذ ولّى السلطان سليمان الغازي المعروف بالقانوني دراغوث على اسطولٍ كبير وقلّدهُ رتبة قپودان باشا فسار الى مدينة المهديّة واذ رآها حرزة منيعة لا يقدر على فتحها دخلها بالمكر والخداع بواسطة احد سكّانها الذي باع وطنهُ بالاصفر الرنّان

فصفا الجوُّ لدراغوث اذ وجد لسفنهِ مرفأً امينًا وحصناً حصيناً وزاد في استحكامات المهديّة التي اتّخذها كرسيًا لملكهِ وجعل الدفاع عنها حاميةً من الاتراك فصارت امنع من عقاب الجوّ وكثيرًا ما كان يخرج لمحاربة النصارى فيضبط سفنهم ويغير على سواحلهم ويشتّتهم في سكّان مُدنها ما شاء

فاهتمّ الامبراطور شارلكان ليضع حدًّا لهذه الغارات وامر رئيس اسطولهِ الاميرال اندري دُوريا ونائبهُ في صقلية جان دي ڤيغا بان يزحفا على مدينة المهديّة ويستوليا عليها مهما تكلّفا من المشقّات في ذلك

فتحفّز الاميرال من ساعتهِ لفتح المهديّة وجمع خمسين مركباً حربيّة انضمت اليها بوارج البابا يوليوس الثالث وغرندوقة توسكانة مع فرسان مالطة . وكان جان دي ڤيغا رجلًا ديّناً فلم يشأ ان تُحرَم جنودهُ من الكهنة في تلك الحملة ليهتمّوا بشؤونهم الروحيّة وكانت الرهبانيّة اليسوعيّة المنشأة حديثاً قد باشرت في صقليّه باعمال جليلة ألفتت اليها نظر جميع الاهلين . وكان رئيسها وقتئذٍ احد مشاهير زمانهِ الاب جاك لَيْنس خطيب المجمع التريدنتيني ونسيج وحدهِ في العلم والعمل فايّاهُ انتدب نائب ملك صقليّه ليسير في رفقة تلك الحملة باذن رئيسهِ العام القديس اغناطيوس دي لويولا

واذ كانت تلك السنة ١٥٥٠ سنة اليوبيل العظيم طلب الاميرال الى القديس ان يلتمس من الحبر الاعظم بان يَمنح غفران اليوبيل الجنود المحاربين

خرج الاسطول من پالرمة في ٢٢ حزيران ١٥٥٠ وكان الاب لَيْنس مع الجيش في مركب النائب الملكي يصحبهُ الاخ المساعد مرتين زُرْنوزا ليقوم معهُ في خدمة الجرحى والمرضى . سار الاسطول مدفوعاً بالرّخاء الى جزيرة قفرةٍ تُدعى فاڤينيانة وبلغ اليها بعد يومين . فتقدّم النائب الى الاب لَيْنس بان يخطب في الجيش ففعل وذكّر

الجمهور بصفات الجنديّ المسيحيّ وواجباته نحو خالقه ونحو نفسه وما يتحتّم عليه لقريبه ولاسيّما لرؤسائه . ثمّ واصل الاسطول سيره اربعة ايّام حتّى بلغ المهديّة

وفي سحر ٢٨ حزيران انحدر الجنود الى البرّ دون ان يتصدّى لهم العدوّ وكان دراغوث غائباً فعسكروا هناك فوق ربوة تُشرف على المدينة ثمّ شرعوا في حصارها بكل نشاط . على انّ حمارّة القيظ لم تلبث ان تضنك قواهم ففتكت الامراض بكثيرين منهم اذ كانوا مضطرّين الى الشغل في الشمس وهم شاكون بالسلاح لئلّا يفاجئهم العدو عزّلاً . فكان الاب لينس والاخ رفيقهُ لا يدّخران وسعاً في خدمة المرضى واذ لم يقويا على مساعدة الجميع استدعى النائب اربعة من الرهبان الكبوشيين لمعاضدتهما لكن الوباء فشا فيهم بعد قليل فمات اثنان شهيدَي محبّتهما ونُقل الآخران الى المستشفى وأُصيب معهم اكثر من ٥٠ شخصاً من المرضين والاطبّاء والجرّاحين الّا انّ الاب لينس ورفيقهُ نجوا بنعمة خاصة من الله وتفانيا في خدمة المرضى الذين كانوا يعدّون انفسهم سعداء بأن يموتوا بين ايديهما فيقبلون الموت مستسلمين الى رحمة الله ومتأهبين لآخرتهم بقبول الاسرار المقدّسة بكل ندامة وتقى

وبينما كان الجنود ساعين في تضييق الحصار اذ بلغ القبودان دراغوث انّ مدينتهُ في خطر يتهدّدها الفرنج فعاد اليها مسرعاً ونزل ليلاً الى البرّ ١٢٠٠ من الترك والمغاربة مع ألفين من عرب البادية . ففي صباح النهار التي احد الضبّاط وهو السيّد القونس يشتبك مع فرقة من الجند ليطلبوا علفاً للخيل وخشباً . وارسل النائبُ معهم السيّد لويس بيريس دي ڤرغاس حاكم برج العيون (la Goulette) سابقاً مع شرذمة أخرى ليكبّوا العملة من شغلهم ويردّوا عنهم غارات العدوّ

فما عتم دراغوث مع جنوده التركيّة انهجموا عليهم فالتحم القتال بين الفريقين ودام ساعة وكاد الفرنج يفشلون لقلّة عددهم لولا انّ الخبر بلغ السيّد غرسية الطليطلي فبادر الى معونتهم مع كتيبة من الجند الذين ابلوا احسن بلاء فاوقفوا دراغوث وعسكرهُ وهم يحاولون المرور بينهم ليدخلوا المدينة وينضمّوا الى اهلها . وقد امتاز في تلك الواقعة فرسان مالطة الفرنسويون فكانوا كالجدار الحيّ في وجه العدوّ كما انّهم منعوا اهل المدينة من الخروج لمساعدة دراغوث . وحمي وطيس القتال حتّى دام خمس ساعات ورأى دراغوث كلّ مساعيهِ خائبة فعاد منكوساً مكسوراً الى سُفُنهِ ثمّ أبحر

ليطلب له جيشاً آخر فيعود الى الدفاع عن مدينته وهو يحرق الأرم على كرته

وكان جيش الفرنج في اثناء ذلك انتهى من تجهيز ادوات الحصار واستعد للهجوم على المدينة فاراد الاب لَيْنِس ان يتأهبوا للامر بقبول الاسرار وذبح غفران اليوبيل فأعلن ذلك في اطراف المعسكر بضرب الطبول ونفخ الابواق. ولما احتشد الجند ألقى المرسل الغيور فيهم خطاباً غاية في البلاغة والتحمس حضّهم فيه لإعداد نفوسهم لربح الغفران المذكور وتلا على مسامعهم رسالةً للقديس اغناطيوس يبشرهم بهذه النعمة السابغة فدونك تعريبها:

اغناطيوس دي لويولا رئيس الرهبانية اليسوعية العام

حماية السيد المسيح ومحبته تحلّان على كافة السادة والاشراف والقوّاد الشهام والجنود وسائر المسيحيين الذين يجاهدون في افريقية في سبيل الايمان وبه ينالون الخلاص الابدي

انَّ السيد الكلي الشرف جان دي ڤينا والنائب الملكي على صقلية والقائد الاعظم على جيشكم المقدّسة سبق فكتب لي باسمه الخاص وباسم جيشكم الباسل أن التمس من قداسة سيدنا الحبر الاعظم البابا يوليوس الثالث ان يمنحكم انتم ايضاً المجاهدين في بلاد غير المؤمنين لمجد السيد المسيح وارتفاع شأن ايماننا المقدس نعمة اليوبيل لتربحوا ذلك الغفران الذي يناله الوافدون الى رومية بزيارة كنائسها العظمى. فلمزيد انعطاف قديستو نحوكم وبقوة سلطانه الرسولي تلطّف ومنحكم جميعاً تلك النعمة الجزيلة. ولذلك لا بُدَّ لكم ان تنيبوا الى الله بالندامة والاعتراف فيزيد تمسُّكم في محاربة اعداء الصليب على قدر المنّة التي أفاضها عليكم الربّ من كرمه تعالى وجودة الكنيسة عروسه المقدسة. وهكذا تجنون من حربكم ثمارهُ الشهيّة سواء تلتم الانتصار على الارض او فُزتم بالسعادة الابدية بالموت في سبيل الله بعد غفران خطاياكم. وقد حرّرتُ لكم هذه الرسالة لأعلن لكم بهذه البشرى وختمتها بطابع رهبانيّتنا

أعطي في رومية في ٧ تموز سنة ١٥٥٠

فكان اوّلُ من اجاب الى دعوة الاب لَيْنِس اركانَ الحرب ورؤساء الحملة كالسادة الاشراف ألڤنس دي كويڤا حاكم الغوليطة وفردينند الطليطلي قائد جيش نابولي وألڤارو دي ڤيڤا قائد عسكر صقلية وفردينند ابن اخي النائب الملكي وعدّة ضبّاط ومعظم فرسان مالطة. فقضى الاب بضعة ايام وليالي يسمع اعترافاتهم ويوزّع عليهم الاسرار المقدّسة ولا يكترث لاتعابه لما يجدهُ من التعزية بمعاينة ايمانهم وتقاهم

ثمَّ حدّدوا يوماً للغارة العموميّة على البلد في ١٠ ايلول. واذ بلغ المحاصرين

انّ اهل المدينة اعدّوا متاريس واستحكامات قويّة وراء السور حيث نووا فتح ثلمتهم غيّروا للحال خطّة هجومهم من البرّ وقصدوا الهجوم من جهة البحر التي كان اهل المهديون تحرزها. ففي عصر النهار باشرت السفن باطلاق بطاريّاتها على الاسوار فدكّتها ونقضت ابراجها وللحال هجم الجنود الاسبانيّون كالسيل الجحاف لا يلوون على شيء. فدخلوا المدينة وناوشوا القتال الحاميةَ الاتراك ببأس وحماس عجيب لم يقوَ الاتراك على ردّه فهربوا من وجههم وسقط منهم صرعى في ساحة الوغى الف ومئتان وأسر تسعة آلاف . وقُتل من الاسبانيين خمسمائة وجُرح قرب الالف وكان من جملة القتلى فرديننند الطليطلي امير الاي جيش نابولي وفرننند لوبو امير الاي جيش لمبَرْدية وعدّة قوّاد وفرسان كور ورويدا وسُرّاغا واولوَا وموزوا

فاسرع الاب لينس في ١٤ ايلول وكتب الى رئيسه القديس اغناطيوس يبشّره بهذا النصر المبين وهذا تعريب رسالته :

انّنا والحمد لله بتمام العافية . ولديّ بشرى سارّة يجب عليّ تبليغها لحضرتك وهي انّ ربّنا السيّد المسيح في يوم الاربعاء الواقع في ١٠ ايلول تنازل بنعمة خاصّة من جلاله ومكّننا من فتح مدينة افريقة (المهديّة) . وفي هذا اليوم الاحد قد دخلنا جامع البلد وكرّسناه كنيسة على اسم القديس يوحنّا المعمدان . وقد أقيم فيها قداس حافل التيتُ في خلاله عظةً شكرًا لله تعالى على الظفر الباهر الذي اصبناه وقد اوضحتُ للرؤساء والجنود ما يترتّب عليهم من الواجبات ثمّ منحنا سرّ العماد لاربعة اولاد صغار ولرجل جُرح في الواقعة ومات بعد قليل. والامل معقود انّ هذا الانتصار يمهّد الامان للثغور النصرانيّة ويساعد المرسلين في جذب اهل هذه البلاد الى الايمان المستقيم . وقد سلّمت كتابي للسيّد جان اوزوبو من اقارب النائب الملكي في صقلّية ومن اعزّ اصدقاء رهبانيّتنا . فسأحسنوا وفادتهُ حبًّا بالرب الذي نطلب من مراحمه ان يصون حياتهُ لمجده.

الحقير لَيْنس

ابن حضرتك بالرب

ثمّ اهتمّ الاب لَيْنس قبل رجوعه الى ايطالية باختيار كاهن فاضل يقوم بخدمة عسكر الاحتلال . فعيّن لذلك راهباً من فرسان مالطة مع خمسة او ستّة آخرين يساعدونهُ في وظيفته واعطاهُ كل اللوازم لتقدمة الذبيحة الالهيّة من حلى كنائسيّة وآنية مقدّسة

اما النائب الملكي فاقام ابنهُ السيّد الثاروحاكمًا على البلد وعزّزهُ بحامية عددها ١٥٠٠ جندي موّنهم بذخائر حربيّة كافية . وكان قصدهُ ان يعود بنفسه الى صقلّية

في ٢٥ ايلول لولا نوء عظيم قلب البحر ظهرًا لبطن غرق بسببه سفينتان من الاسطول. وكانت سفينة النائب الملكي عتيقة متداعية الالواح وعليها الاب لينس فضايقتها الامواج حتى أيس الجميع من خلاصها وتمكن النائب ان يرسل الى البرّ ودعا اليسوعيّ الى مرافقته لينجو بنفسه فأبى لئلا يهجر الجند في خطرهم فمنّ الله عليهم بالنجاة بنعمة خاصة نسبها الجميع الى قداسة الاب لينس وبركته

ثمّ هدأ البحر وأمخر الاسطول الى صقلية في ٥ تشرين الاوّل وارسى في مدينة تريباني حيث التفّ الجنود حول الاب لينس قبل وداعه وشكروهُ على عميم فضله نحوهم وطلبوا بركتهُ كبركة احد اولياء الله وملائكته المنظورين. ثم بادر النائب جان دي ڤيغا وارسل الى الحبر الاعظم الرسالة الآتية في تاريخ ١٨ من الشهر :

أيُّها الاب الاقدس

انّ حضرة الاب الاستاذ لَيْنس الذي رافقنا باذن رئيسه في حربنا الافريقيّة المنتهية بالظفر قد اظهر طول مدّة هذه الرحلة غيرةً لا توصف وقام بكل ضروب الاعمال الخيريّة. ولكونهِ ذاهبًا الى رومية فقد كلّفتهُ بان ينوب عني بتقبيل أقدام قداستكم وبمفاوضتكم في بعض الشؤون الآئلة الى خدمتهِ تعالى وخير حاميتنا في افريقية. فأملي انّ قداستكم تصدّقون على ملتمسي كما تسازلتم وقبلتم دعوتي في امر اليوبيل الذي اتى بأغزر الثمار من التقى والصلاح. فليحفظ الرب قداستكم سنين طويلة لتدبير الكنيسة الجامعة

فصار للاب لينس عند بلوغهِ الى رومية ابهج استقبال واثنى الحبر الاعظم على خدمهِ المتعدّدة للكنيسة واعادهُ الى المجمع الترِيدنتيني لينوب عنهُ بصفة لاهوتيّه كما كان سابقًا. وما لبث بعد قليل ان خلف القديس اغناطيوس في رئاستهِ العامّة على الرهبانيّة اليسوعيّة وتوفي في رومية سنة ١٥٦٥

سلطانٌ يسوعيّ: المولى محمّد العبّاس

للمرحوم الاب لويس شرل اليسوعيّ

هو فصلٌ آخر من الكتاب السابق للاب شرل اليسوعيّ (ص ٩٧–١٠٧) . امّا السلطان المذكور فقد اشرنا اليهِ في المشرق (١٣ [١٩١٠] : ٥٤٩) في ردّنا على جريدة العرب